ISSN : 2543-3938 - EISSN : 2602-7771

نماذج من أدوار ومحن المثقفين العرب في عصر النهضة العربية

Models of the roles and tribulations of intellectuals in the Arab Renaissance

د . أحمد معط الله

جامعة العربي التبسي تبسة (الجزائر)، ahmed.maatallah@yahoo.com

تاريخ الإستلام: 10/ 05 / 2021 **تاريخ القبول**: 09/ 12 / 2021 **تاريخ النشر**: 30/ 12 / 2021

ملخص:

لقد كان القرن التاسع عشر في العالم العربي الإسلامي قرن الانحطاط والضعف والتخلف وتميز بسلطة المستبد وسلطة الاستعمار الغربي، وظهرت خلاله حركة الإصلاح وتبنى هذه الحركة مجموعة من المثقفين كجمال الدين الأفغاني، وعبد الرحمن الكواكبي، وعلي عبد الرازق، هؤلاء الذين حملوا لواء الإصلاح والنهوض الحضاري، وسميت هذه الفترة بعصر النهضة العربية، وكان الإصلاح في العالم العربي الإسلامي متنوعا بين الديني والسياسي للوقوف عند أسباب الضعف والتخلف الذي يعيشه العالم العربي والإسلامي، ولتقديم الحلول للنهوض واللحاق بالركب الحضاري.

الكلمات المفتاحية: العالم العربي الإسلامي؛ السلطة ؛ الإصلاح ؛ النهضة ؛ المثقف؛ التخلف .

***

Abstract:

The nineteenth century in the Arab-Islamic world was a century of decadence, weakness and backwardness, and was characterized by the authority of the despot and the power of Western colonialism, during which the reform movement emerged and this movement was adopted by a group of intellectuals such as Jamal al-Din al-Afghani, Abdul Rahman al-Kawakibi, and Ali Abdul-Raziq, those who carried the banner of reform and civilized advancement, This period was called the era of the Arab renaissance, and the reform in the Arab-Islamic world varied between the religious and the political, to stand up to the causes of weakness and backwardness in the Arab and Islamic world, and to provide solutions for the advancement and catch-up of civilization.

Keywords: *The Arab Islamic world ; power ; reform ; revival ; intellectual; Backwardness.*

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مقدمة

انحطت الحضارة العربية بعد أن استولى الأتراك على الدولة الإسلامية فساد الظلم وتردت الحياة الاجتماعية والسياسية وحجبت الحرية، وساد الاستبداد، وكان التخلف في عهد العثمانيين كبيرا، فحجبت فعالية الإسلام الحضاري، وانتشرت الخرافات والشعوذة وساد الجمود، واستمرت هذه الحالة بداية من القرن الحادي عشر ميلادي حتى القرن الثامن عشر ميلادي، وما زاد الطين بلة الانقسامات الكثيرة من الأمراء على الدولة العثمانية، وأنشئوا حكومات مستقلة فسادت الفوضى، وفي مقابل هذه الحالة تطورت أوربا وخرجت من عصور الظلام، وصارت نموذجا حضاريا متطورا، وبعد هذه الحالة المزرية التي شهدها العالم الإسلامي والعربي ظهرت أفكار إصلاحية على أيدي مثقفين آمنوا بالحرية والعدل ودعوا إلى إعادة بناء الدولة الإسلامية وإعادة بناء المجتمع، لقد كان زعماء الإصلاح باختلاف مشاربهم وأفكارهم، بداية حقيقية لإرساء قواعد فكر يدعو إلى إحياء التراث العربي الإسلامي، أو تجديده ليتماشى مع متغيرات العصر، وهؤلاء يمثلون نماذج فعلية وأصيلة للمثقف الحقيقي، وتجل من تجلياته في تاريخنا العربي الإسلامي، وذلك لأنهم أسسوا لفكر النهضة، وأدوا أدوارا كبيرة في بعث روح التحدي والإيمان بالاستقلال والحرية، وقد عانى الكثير منهم من الظلم والبطش والسجن نتيجة للأفكار التي كانوا ينشرونها في أوساط الشعوب العربية في تلك الحقبة، وقد مروا كسابقيهم من المثقفين العرب والمسلمين بمحن نتيجة الأدوار التي أدوها وسنركز على ثلاثة شخصيات كان لها الأثر البالغ في حركة النهضة العربية، وهم جمال الدين الأفغاني، والذي حتى وإن لم يكن عربيا فإن السياق الفكري والجغرافي الذي تواجد فيه هو سياق عربي، فقد آمن بعربية الخلافة، ودعا إلى اتخاذ مصر عاصمة للخلافة الإسلامية، وعاش نضاله في بلاد العرب متنقلا بين مصر وحلب، والشخصية الثانية نموذج للمثقف الأمين الخادم لقضايا أمته، وهي شخصية عبد الرحمن الكواكبي المثقف الثائر، الذي عرف بعنفوانه وجرأته ووقوفه في وجه الاستبداد، أما الشخصية الثالثة فهي شخصية علي عبد الرازق ،الذي كان له توجها خاصا، فقد دعا إلى التجديد والتخلي عن البالي القديم الذي جثم على الحياة الفكرية العربية، وقد لعب هؤلاء المثقفون أدوارا مختلفة أعقبتها محنا مروا بها نتيجة هذه الأدوار .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أولا: أدوار ومحنة جمال الدين الأفغاني :

جمال الدين الأفغاني أو كما يحلو لأتباعه ومحبيه ومريديه في تلك الحقبة بتسميته بالسيد كان صاحب فكر إصلاحي نهضوي، ونتيجة أفكاره هذه لعب دورا بارزا في إيقاظ الأمة العربية والإسلامية من سباتها الذي طال عدة قرون، وحاول بكل ما أوتي من قوة وعزيمة زرع أفكاره بين أوساط الشعوب العربية والإسلامية، فأينما حل التف حوله المثقفون والعامة على حد سواء، فكان بمثابة ضمير للأمة ومنقذ لها ، وكان من أتباعه الأدباء والفلاسفة ورجال الدين من أمثال محمد عبده، وسعد زغلول، وإبراهيم اللقياني، وعلي مظهر وكثير من مثقفي مصر والعالم الإسلامي .

يقول أحمد أمين متحدثا عن السيد جمال الدين الأفغاني،ومقارنا له ببعض زعماء الإصلاح " لئن كان محمد عبد الوهاب يرمي إلى إصلاح العقيدة ومدحت باشا يرمي إلى إصلاح الحكومة والإدارة ، فالسيد جمال الدين الأفغاني يرمي إلى إصلاح العقول والنفوس – أولا- ثم إصلاح الحكومة – ثانيا- وربط ذلك بالدين ، مدحت يرى أن إصلاح الشعب من طريق إصلاح الحكومة، وجمال الدين يرى إصلاح الحكومة من طريق إصلاح الشعب " (أمين، 2009)

هكذا استطاع جمال الدين الأفغاني كمثقف وكصاحب رسالة أن يجمع في دعواه بين عرى التطور والنهضة، فقد جمع بين إصلاح العقيدة والسياسة والفكر، دعا إلى العقيدة الصحيحة وإلى التجديد بالخروج من بوتقة الجمود والتقليد، ودعا في السياسة إلى بناء الحكومة النيابية التي تمثل الشعب، ودعا إلى إصلاح الحكومات الإسلامية العربية، وفي مجال الفكر إلى إصلاح العقول وإصلاح الشعب، الذي غرق في براثين الخرافة والجهل، فكان بدعواه هذه مثالا ونموذجا للمثقف الذي يعي ما يفعل وقد استطاع أن يضع الدواء على الجرح، فقد انتشرت الخرافات في تلك الحقبة التي عاشها ما أدى إلى التدليس على الدين، وفسدت الحكومات في المجتمعات الإسلامية العربية، وشهد الحكم العثماني انتشار الفساد والظلم، واحتلت بعض ربوع الوطن العربي والإسلامي من الاستعمار الأوربي، وصاحب هذا الأمر أيضا انتشار الجهل والأمية والأفكار الرثة التي أدت إلى التخلف والضعف.

وقد كان مقصد جمال الدين الأفغاني السياسي مدة حياته إنهاض الدولة الإسلامية من ضعفها، حتى تلحق الأمة بالأمم العزيزة ، والدولة بالدول القوية، فيعود للإسلام شأنه، وللدين الحنيف مجده (عمارة، 2008).

عُرف جمال الدين بترحاله في سبيل إيقاظ المسلمين ومحاربة الاستعمار الأوربي والإنجليزي منه على وجه الخصوص، فلقد خرج من أفغانستان إلى الهند ثم إلى مصر، فالأستانة فالحجاز فالعراق فإيران، فروسيا وباريس، داعيا إلى الإحياء والتجديد للفكر الإسلامي، وإلى إيقاظ الأمة الإسلامية من سباتها وفك قيود الجمود والتقليد والإقلاع من التخلف الموروث إلى النهوض الإسلامي لمواجهة الاستعمار الزاحف إلى ديار الإسلام (عمارة، 2008) فقد ضحى السيد جمال الدين الأفغاني بسنين من حياته في سبيل القضية التي آمن بها وعمل من أجلها ألا وهي إيقاظ الأمة من سباتها وإلحاقها بالركب الحضاري، وإخراجها من التخلف والجمود .

ومما لا خلاف فيه أن دعوة جمال الدين الإسلامية إنما كانت دعوة عامة ليست خاصة بأمة من الأمم ولا بشعب من الشعوب فقد ترك في كل الممالك الشرقية، وما اتصل بها من الأمم الأوربية أثر، وبذر في كل أرض بذرا، وأخذ من صدر شبابه يسبح بين بلاد العرب، ولم يتعلق قلبه ببلد من البلاد على أنه وطن خاص له ، ولم يجعل من مذهبه الاجتماعي فكرة الوطنية بمعناها المعروف التي تجعل صاحبها يتعصب لها ويقف جهوده عليها ، بل جعل الشرف كله وطنا له ، يعمل دائبا لخلاصه من سلطة الأجنبي ، و من الحكم

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

الاستبدادي (أبو رية، 2006، صفحة 28) هكذا كان طريق جهاده، وعمل على تطهير الفكر من الخرافات وتخليص العقيدة من البدع، وتحرير الفكر من الجمود، وتحرير الأمة من الطغيان والاستعمار والوصاية.

وقد كانت دعوى جمال الدين الأفغاني تتلخص في العبارة الشهيرة التي أطلقها: " إن تجديد دنيا المسلمين رهن بتجديد دينهم، ولن يكون لهم تمدن حقيقي إلا إذا تأسس على روح الشريعة وقواعد الإسلام" (عمارة، 2009، صفحة 54)، ولنستبين الأدوار الكبيرة التي قام بها جمال الدين الأفغاني ينبغي علينا أن نقف عند أهم الأفكار التي بنى عليها دعواه وجهاده ونضاله، فقد دعا في المجال السياسي إلى إصلاح حال الشعب لتصلح الحكومة، فماذا تنفع الحكومة الصالحة إذا كان الشعب غير صالح؟ لقد علمنا التاريخ أن الحكومة لا تستقيم إلا إذا كان في الأمة رأي عام يخيفها ويلزمها أداء واجباتها و الوقوف عند حدها، فإذا لم يكن ذلك، فالطبيعة البشرية تملي على الحكام أن يستأثروا المنافع، وغاية ما يتوقع من الحكومة الصالحة غير المؤسسة على قوة الأمة ويقظتها أن تكون موقوتة بوقتها، فإذا زالت حل محلها من لا يصلح، إذ لا شأن للأمة في اختيارها، ولا رقابة لها على أعمالها (أمين)، وهنا إشارة واضحة من جمال الدين الأفغاني إلى دور المثقف في مراقبة الحكومة لأنه صوت الأمة ووعيها ورقيبها على الحكام، فالرأي العام يبنيه المثقفون، ويصبحون كممثلين للأمة يلعبون دورا رقابيا على الحكومات وبذلك تخاف الحكومات من هذه الرقابة، فيصلح الحكم، وقد دعا جمال الدين الأفغاني، إلى بناء مجالس نيابية يشغلها المثقفون ويعملون من خلالها على مراقبة الحكومة في أدائها لواجباتها واشترط أن تؤسس هذه المجالس ويختار أعضاؤها بعناية كي تؤدي أدوارها كاملة، وهذا الأمر أيضا يتطلب أن يكون العامة على درجة من الوعي كي يحسنوا اختيار ممثليهم في المجالس النيابية وبذلك تصلح الأمة ويصلح الحكم.

وقد كان جمال الدين في سبيل ذلك مزكيا لمنهاج الشورى والحرية وإدارة شؤون الأمة وتدبير سياسات حكوماتها، موقدا للثورات في وجه الاستبداد الداخلي (عمارة، 2008) فبالشورى يقوم الشعب باختيار ممثليه في المجالس النيابية، فيكونون رقيبا على الحكومة وصوتا للأمة، ومعولا لبنائها، وبهذا الشكل يتضح أن جمال الدين يدعوا إلى إحياء نظام الشورى وإعطائه وجها جديدا ذو طابع نيابي ليتماشى مع روح العصر وهنا تتضح دعواه للتجديد.

كان نضال جمال الدين الأفغاني في بلاده أفغانستان ثم في إيران، وعظم شأنه أكثر لما ارتحل إلى مصر، فبدت منه نضرة إلى الناحية الاجتماعية فرأى ظلم الحاكمين وجورهم الذي توارثته البلاد منذ أجيال، فقد ازداد طغيانا في عهد الخديوي إسماعيل حتى أصبح الناس فيه كما وصفهم الأستاذ الإمام عبيدا، ثم التفت إلى نظام الحكم فوجده حكما استبداديا غاشما، لا ينفذ فيه إلا إرادة الحاكم ومشيئته، وأن مجلس شورى النواب الذي ابتدعه إسماعيل لم يكن إلا مجلسا صوريا ليس له أن يقضي في أمر إلا بأمر إسماعيل، وليس من حقه أن يسير على قواعد الشورى المتبعة في سائر مجالس النواب، وبذلك تشعبت أمام السيد سبل الإصلاح وتعددت وجوهه، وكان عليه أن يجاهد في ميادينها جميعا (أبو رية) فبدأ أولا في المجال الديني بمحاربة الخرافات والبدع والأوهام التي دلست على الدين فعمل على تطهير الدين منها ما جعله يقف في مواجهة مشايخ الأزهر الذين نعتوه بالزندقة لما كان يلقي دروسا في الفلسفة في بيته وفي بعض الجلسات في المقاهي، وأخذ يكافح في الآن نفسه الجمود الفكري والتقليد الأعمى.

ولما قرأ السيد جمال الدين الأفغاني في دروسه الفلسفة وناقش قضاياها في مجالسه وكانت الفلسفة محرمة في الأزهر ومن ينظر فيها يكن زنديقا كافرا فهاج عليه شيوخ الأزهر ورموه وتلاميذه بالكفر، ولكنه لم يلق بالا إليهم وظل في طريقه لا يدع فرصة سواء كان ذلك بالقول أو بالكتابة إلا بث آرائه الحرة فيها لتلاميذه (عمارة، 2008) وعظم أمر الرجل في نفوس طلاب العلوم، وتسابقوا للأخذ عنه، وأعجبوا بدينه وأدبه، وانطلقت الألسن بالثناء عليه، وانتشر صيته في الديار المصرية وكون جيلا من المثقفين .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فظهر كتبة في القطر المصري لا يشق لهم غبار، ولا يوطأ مضمارهم، وأغلبهم أحداث في السن شيوخ في الصناعة، وما منهم إلا من أخذ عنه، أو عن أحد تلامذته، أو قلد المتصلين به، ومنكر ذلك مكابر للحق مدابر (عمارة، 2008)، فقد كان أثره بالغا في بناء جيل من المثقفين حملوا لواء النهضة الفكرية في مصر فأصبحت مصر مقصد كل طالب علم، ومنبرا لكل حر يبحث عن الحرية والعلم.

ومع إيمانه بدور العامة والجماهير في الثورة والإصلاح، فلقد كان أبرز صناع النخبة والصفوة التي قادت حركة الجامعة الإسلامية على امتداد وطن العروبة وعالم الإسلام مجددة للفكر، وقائدة لحركات التحرر الوطني وداعية إلى الإصلاح الاجتماعي ومفجرة للعديد من الثورات، حتى لقد كانت صناعته الأولى هي تربية الرجال (عمارة، 2008). إنهم النخبة المثقفة التي قادت حركات التحرر بالوطن العربي ونظرت لسبل النهضة والاستقلال السياسي والفكري، فقد كان أثر الرجل بالغا في إيقاظ الأمة من سباتهما، وفي بناء جيل يفكر، ويعمل على الخروج من التخلف والاستبداد.

فقد وقف جمال الدين الأفغاني إلى جانب الشعب يحضه على الثورة ضد الإقطاع والاستعمار، ووقف إلى جانب الدين يدرأ عنه الخرافات ويحميه من جهل المنتسبين إليه، المتحدثين باسمه الذين ظفروا بألقاب كبار العلماء ومشايخ الإسلام، ومنعوا العلوم الحديثة من أن تدخل إلى الأزهر الشريف، فالطبيعة والكيمياء كفر والحساب والجبر زندقة، والفلسفة إفك وسفه، والاجتهاد في المسائل الدينية حرام، واشتغال رجال العلم بالأمور السياسية والاجتماعية بدعة (الشناوي، 1987)، فقد أعطى جمال الدين الأفغاني بصيصا من الأمل للمثقفين المصريين، وأعادهم إلى الأدوار المنوطة بهم والتي غابوا أو غيبوا عنها نتيجة الحصار المضروب عليهم من السلطة الحاكمة أو من السلطة الدينية المتمثلة في الأكليروس الأزهري آنذاك.

ولقد كانت السنوات التي عاشها الأفغاني في مصر (1871 – 1879) هي أخصب السنوات في تاريخ إنجازاته الفكرية والسياسية ، ففيها ربى نخبة من العقول التي جددت فكر الإسلام وحياة المسلمين، وفي مقدمتهم الإمام الشيخ محمد عبده، وشرح من كتب الفلسفة والمنطق ما أعاد للحياة الفكرية قسمة العقلانية الإسلامية التي غابت عنها منذ عصر التراجع الحضاري للمسلمين ونشأت على يده مدرسة في الصحافة الأهلية الحرة، صحف "مصر " و "التجارة " و " مرآة الشرق " ، وتيار شعبي لمعارضة الاستبداد الداخلي، وللثورة على النفوذ الأجنبي، كما عرفت البلاد على يده طلائع التنظيمات السياسية والإصلاحية "الحزب الوطني الحر "، في تلك الفترة المبكرة من تاريخ نشأة الأحزاب (عمارة، 2008).

من أجل هذا عمل السيد جمال الدين الأفغاني على إرساء قواعد فكرة الجامعة الإسلامية التي تهدف فكرتها إلى توحيد الأمة الإسلامية، لإعادة الإسلام إلى دوره الحضاري ولتخليص الشعوب بها من الاستبداد والاستعمار، وقد دعا إلى ترك الخصومات والخلافات الطائفية ودعا إلى التقريب بين الشيعة والسنة، وبناء وحدة إسلامية.

لجمال الدين الأفغاني غرضين واضحين هما :

1- بث الروح في الشرق حتى ينهض بثقافته وعلمه، وتربيته وصفاء دينه وتنقية عقيدته من الخرافات وأخلاقه مما تراكم عليها، واستعادة عزته ومكانته.

2- مناهضة الاحتلال الأجنبي حتى تعود الأقطار الشرقية إلى استقلالها مرتبطة بروابط على نحو ما ، لتتقي الأخطار المحدقة بها (أمين).

وقد آمن الأفغاني بدور مصر الريادي في هذا الشأن ورأى أن تكون منارة الأمة ورائدة نهضتها فمنها تبدأ، حركة التحرر الفكري والسياسي ورأى أن قائد الأمة الإسلامية ينبغي أن يكون عربيا متفتحا، فاتحا لباب الاجتهاد والتجديد لذلك يقول " لا تحيا مصر ولا يحيا الشرق، بدوله وأماراته إلا إذا أتاح الله لكل منهم رجلا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قويا عادلا، يحكمه بأهله على غير طريق التفرد بالقوة المفيدة" (الأفغاني، 1989) فهو هنا يدعو إلى النظام الشورى وإعطاءه معنى حضاريا متجددا يوازي نظام الديمقراطية في المجتمعات المدنية.

لقد كان الأمير توفيق في آخر أيام إسماعيل باشا يقدره ويدين بمبادئه، وكان السيد يلتقي به في المحفل المسوني، ويتوسم فيه الخير إذا وُلِّيَ بعد إسماعيل، ولكن الخديوي توفيق لما تولى الحكم، سعى إليه الساعون، ودس له الدساسون، فاجتمع مجلس الوزراء وقرر نفي السيد جمال الدين، لأنه رئيس جمعية سرية من الشبان ذوي الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا، فمثلت من جديد رواية سقراط وقبض عليه وعلى خادمه الأمين الفيلسوف أبي تراب في 6 رمضان 1296هـ الموافق لـ 24 أوت 1871 وأودع باخرة سارت به إلى بومباي وكان هذا آخر العهد بالأستاذ في مصر (أمين).

قبضت الحكومة على السيد جمال الدين الأفغاني صباح ذلك اليوم المشئوم، وقاده جنودها بالقوة إلى محطة سكة الحديد، وأركبوه بالعنف القطار الذاهب إلى السويس و لقيه قنصل إيران، وبعض المصريين الأحرار، وكان الانزعاج بنفي جمال الدين الأفغاني عاما، ولكن الخديوي أبدى سروره بما فعل، وقد حتمت الحكومة على الصحف نشر الأمر الصادر بنفي جمال الدين، بما في هذا البيان من تقريع شديد وتجريح جارح للرجل فنشره البعض ورفضت إحدى الجرائد نشره فصدرت تعليمات بتعطيلها !! (الشناوي) ولكن بنفي جمال الدين الأفغاني زادت حدة الأفكار التحررية في مصر، ضد الاستبداد الداخلي والوصاية الخارجية، وازداد المثقفون في مصر جرأة، وتأكد المصريون أن الإصلاح والثورة أصبحا أمرا ضروريا.

ويقول في هذا الصدد " برنار ميشيل " : " أيان ذهب جمال الدين كان يترك وراءه ثورة تغلي مراجلها، ولسنا نعدو الحق، أو نكون مبالغين إذا قررنا أن جميع الحركات الوطنية الحرة، وحركات الانتفاض على المشاريع الأوربية التي نشاهدها في الشرق ترد أصولها مباشرة إلى دعوته" (أبو رية).

وعن انتمائه للمحفل المسوني لما سئل حوله قال : لقد رأيت أن أنظم إلى المحفل المسوني الأسكوتلاندي، لأنه يضم طائفة من المصريين والأجانب وضننت أنني أستطيع أن أنقل أفكاري إليهم، ولكن خاب ضني (الشناوي، صفحة 26) فقد اعتقد السيد جمال الدين الأفغاني أنه بانضمامه للمحفل المسوني يستطيع نشر أفكاره وإعطائها بعدا عالميا ولكنه خاب ضنه لما اكتشف حقيقة الماسونية فانسحب من المحفل، وربما انضمامه هذا جعل الكثيرين يشككون في نواياه.

مكث جمال الدين الأفغاني منفيا في الهند حتى سنة 1882م، فسمح له الإنجليز بالسفر ومغادرة الهند، فتوجه إلى باريس والتقى هناك بالشيخ محمد عبده وأصدرا معا مجلة العروة الوثقى.

وفي سنة 1892م استدعاه السلطان عبد الحميد إلى الأستانة ووصل إليها، فأصبح يجالس السلطان عبد الحميد، وعرض عليه منصب مشيخة الإسلام فأبى، ثم انقلب عليه السلطان ثم سجنه سجنا سياسيا مدة خمس سنين ثم دُبِّرَت له مؤامرة قتل فيها مسموما في 9 مارس سنة 1897م (أبو رية).

وكان مصيره أشبه ما يكون بمصير الفيلسوف اليوناني الكبير سقراط، هكذا تكون نهاية المثقف الذي يؤدي أدوارا حاسمة في تاريخ أمته، فهو يضحي بحياته لتحي الأمة، ويقدم روحه قربانا في سبيل حرية الأمة ونهضتها.

وهكذا فلما أثمرت تعاليمه التي كان يبثها لتطهير العقائد وتحرير الأفكار وتبصير الناس بما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات، وعظم نفوذ السيد جمال الدين الأفغاني، وأقبلت عليه الوجوه وانصرفت إليه الأذهان شق ذلك على أعدائه، فلم يدعوه يسير في طريقه لكي ينشر دعوته ويتم رسالته، فأصدروا له الكيد وثارت عليه الحرب من كل ناحية (أبو رية).

لقد لعب جمال الدين الأفغاني أدوارا كبيرة كمثقف وكان حلقة كبيرة من حلقات الفكر العربي الإسلامي، ومحطة فكرية هامة من محطات النهضة وفكر النهضة، وفي هذا الصدد يقول عنه المفكر محمد

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عمارة: " إن جمال الدين الأفغاني ليس مجرد مفكر ولا هو بالمناضل العادي، لقد أصبح جزءا كبيرا وعزيزا من ضمير هذه الأمة الإسلامية في عصرنا الحديث" (عمارة، 2009).

ثانيا: أدوار المثقف الثائر عبد الرحمن الكواكبي ومحنته:

وتتواصل أدوار المثقفين العرب في عصر النهضة، وتتواصل معها فصول تاريخية للمحن التي مروا بها جراء أدائهم لهذه الأدوار العظيمة، التي كانت سببا مباشرا وعاملا مهما في نهضة البلدان العربية آنذاك وبداية لانتشار الوعي في صفوف أبناء الأمة العربية، فكان الكواكبي بمثابة الرائد الأول للفكر الثوري، ثورة تبدأ بالوعي بطبيعة الاستبداد الذي يمارسه العثمانيون، ووعي بالاستعمار المزدوج ، سلطة عثمانية ظالمة مستبدة ، واستعمار أو وصاية أوروبية ، وظلم من أبناء جلدتنا الولاة والعاملين لدى السلطة العثمانية أو الأوربية.

تبلورت أفكار الكواكبي الأولى في حلب، وبها بدأت تجربته الإصلاحية عن طريق الأدوار والأنشطة التي تصدى لها أو نهض لها وشملت أعماله عدة مجالات منها: الصحافة والمحاماة والتجارة، وهي الأنشطة والمجالات التي جعلته على احتكاك مباشر و حي مع المجتمع من جهة، ومع السلطة من جهة أخرى، لذلك فإن الأفكار التي توصل إليها وتمسك بها هي نتائج اختبارات وتجارب واحتكاكات، وليست مجرد تأملات أو تجريدات أو تنظيرات باردة (الميلاد، 2002)، فانغماس الكواكبي في المجتمع ومعايشته لمعاناة الأمة والأزمة التي كان يعيشها المجتمع آنذاك وما رآه من فساد في شتى المجالات وخاصة ظاهرة الاستبداد التي كانت سببا رئيسيا في تخلف الأمم، جعله يشكل نظرة واقعية حول هذه الحالة التي آلت إليها الأمة العربية والإسلامية، ووضع لذلك جملة من الحلول وأدى أدوارا كبيرة وعمل على تخطي هذه الحالة .

كما اشتغل في مجال الصحافة محررا بجريدة الفرات مدة أربع سنوات(1872م – 1876م) وهي الجريدة الوحيدة في حلب آنذاك التابعة للدولة (زيدان، 2012) وفيها ظهرت بعض أفكاره فقد قام فيها بتشخيص الحالة وتبيان أسباب التخلف والانحطاط الذي عرفته الأمة.

وأنشأ بعد ذلك جريدة الشهباء سنة 1878م بالتعاون مع هشام العطار وهي أول جريدة عربية مستقلة تصدر في حلب باللغة العربية ولكن والي حلب أوقفها مع العدد الخامس عشر لأنه لم يتحمل المنحنى التصاعدي للصحيفة لأن مقالاتها كالسيف القاطع على الحكم والموظفين ليتم غلقها من طرف الأتراك (الميلاد، الصفحات 09-10) بعدها عاود الكواكبي مرة أخرى لقناعته بهذا الدور فأصدر سنة 1879م " جريدة الاعتدال" باللغتين العربية والتركية، غير أنها لاقت نفس المصير وتوقفت هي الأخرى بعد صدور عشرة أعداد منها فقط، وتم إغلاقها بطلب من والي حلب " جميل باشا" (الميلاد) وبعد أن فشل في هذه الطريقة تحول إلى العمل الميداني فتقلد العديد من المناصب الإدارية العالية لكنه لم يستقر في أي منها.

هذا التحول والانتقال السريع في المناصب والمواقع يكشف عن عدم قدرة الكواكبي على الانسجام والتوافق مع مؤسسات الدولة ، كما يكشف من ناحية أخرى عن سعي السلطة لاحتوائه وفق سياستها، ومن المجالات التي انخرط فيها سلك المحاماة والقضاء (علي عوض، 2002) .

هذه المجالات التي عمل فيها و الأدوار والأنشطة التي قام بها، ساهمت بشكل كبير في تكوين تصوراته الذهنية، وانطباعاته الاجتماعية والسياسية وفكره النقدي. فالصحافة جعلته في موقع الرقيب والناقد، وفتحت ذهنه وفكره على مجريات الشأن العام والاقتراب من قضايا الأمة، وتقلده للمناصب الإدارية جعلته يعاين مباشرة طريق الاستبداد والفساد، وكيف ينمو ويتوسع في مؤسسات الدولة، وكيف أثر ذلك على الأمة وعلى حياة الناس-وما أشبه ذلك الحال بحالنا اليوم-.

www.manaraa.com

وشيئا فشيئا بدأ الكواكبي يضع يده على بعض الإجابات، هي أشياء يراها سببا لتدهور حال المسلمين، أسباب دينية: أهمها الإيمان بالقضاء والقدر وأسباب خلقية: أهمها استيلاء اليأس على النفوس وإهمال طلب الحقوق العامة جبنا وخوفا . وأسباب سياسية : أهمها فقدان المسلمين الحرية بجميع أنواعها، حرية التعليم، حرية الخطابة، حرية البحث العلمي، إن المسلم تدهور حاله حينما أصبح مجردا من حرية القول والعمل، ومجردا من الأمن والأمل، وحينما فقد المجتمع حريته، فقد أمله وبطل عمله وماتت نفسه، وفسد عقله واختل قانونه وسئم حياته، فاستولى عليه الفتور، واستسلم للاستبداد (عوض، 2016) هكذا كانت الخلاصة التي توصل إليها الكواكبي من تجاربه المختلفة، هكذا فهم الداء الذي نخر بجسد الأمة وجعلها آخر الركب.

هذه كلمة لا تمر بسهولة من الذي يقصده الكواكبي بالاستبداد؟ الوالي ؟ الصدر الأعظم ؟ السلطان ؟ إن أحدا منهم لن يتسامح إذا سمع من الكواكبي أو غيره هذه الكلمة، من هنا بالضبط سوف تبدأ مشاكل الكواكبي مع الولاة الذين يمثلون السلطان الأكبر ... المستبد الأكبر ، لقد تنبه جميل باشا والي حلب إلى الكواكبي فكل ما تنشره صحف الأستانة وبيروت ضده من قلم الكواكبي ، والشكاوى التي يكتبها الناس استغاثة من ظلمه، ساهم في تحريرها الكواكبي ، لهذا بدأ الوالي في مراقبته، في التضييق عليه، وأخيرا قام بإلقاء القبض عليه والتهمة: التآمر على الوالي، والمتهمون الكواكبي وآخرون (عوض). نال الكواكبي البراءة مع من معه ، لكنه منع من السفر، ووضع له الوالي الجواسيس لمراقبته وأخذ منه مزرعته وأمواله، ولما جاء الوالي الجديد ضيق عليه أكثر من سابقه وقبض عليه مرة أخرى ، واتهم بتشكيل، جمعية مناوئة للدولة.

تهمة خطيرة، سلاح قاتل، ولكي تكون الإصابة مضمونة، فإن الشرطة عند تفتيش منزلة دست له الأوراق المصادرة، صورة خطاب مزور وزعموا أن الكواكبي قد بعث به إلى قناصل الدول الأجنبية يحرضهم على مخاصمة الحكومة والعمل على تخليص البلاد من المظالم. وحضروا له الشهود وحكم عليه بالإعدام، ثم فر متنكرا في باخرة إلى بيروت، وطلب محاكمته هناك فثبتت براءته وعزل الوالي، وعين الكواكبي نائبا شرعيا بولاية سوريا لكنه رفض وارتحل متوجها إلى مصر قلعة الأحرار.

وفي مصر وجد الكواكبي المناخ الحر و الجو الصحو، الذي يتيح له لا مجرد نشر أصول ومسودات الفصول التي جاء بها من حلب، فقط بل والفرصة السانحة لإدخال التعديلات والإضافات التي ما كان له أن يفكر في إدخالها وإضافتها وهو هناك في ظل كبت العثمانيين وإرهابهم المشرع على أعناق الأحرار وعقولهم وقلوبهم (عمارة، 1970).

وكانت مصر مركز إشعاع للفكر الثوري المتمرد على الاستعباد وبكل أنواعه وأوضاعه ولقد كان عبد الرحمن الكواكبي عبقريا طاف بكثير من البلاد، ولم تطل إقامته فيها، ولم يجد في أي بلد طاف به ظروفا تسمح له بتأدية رسالته، فلما طاف بمصر أحس أنها الحرم الآمن الذي يفتح له رحابه ليفكر كما يشاء، ويعبر كما يشاء، وقد وفد إلى مصر عام 1899م (العقاد، 1959) فالجو الحر الذي تميزت به مصر – نوعا ما – وخاصة ظهور أصحاب الفكر الحر بها وكثرتهم ومعاداتهم العلنية للحكم العثماني سمح للكواكبي بالنشاط في مصر ونشر أفكاره .

عمل الكواكبي على إصلاح المجتمع الإسلامي وإصلاح الحكومة المستبدة، وارتبط بالدين من خلال تزويد الشباب بالصحيح وإبعادهم عن غير هذا من خلال نشره في مجلاته ومقالاته، والشيء الذي حفزه حتى يتبع الجانب الديني هو درايته المحققة بتاريخ الأمم الإسلامية وكان يهتم بالعلماء والجانب العلمي ويعطيه أهمية كبيرة (كتورة، 1987) وقد جمعت مقالاته في كتابين كبيرين هما " طبائع الإستبداد ومصارع الإستعباد " وفيه تعرض لطبيعة الاستبداد والعوامل المؤدية لظهوره، وبين فيه أسباب الاستبداد العثماني وبين فيه علاقة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

السياسة بالدين، أما الكتاب الثاني فقد حمل عنوان " أم القرى " ، واحتوى على مذكرات اجتماعات جمعية أم القرى السرية وتكلم فيه عن قضية العالم الإسلامي وأسباب تأخره والسبيل المؤدي إلى النهضة .

وضع الكواكبي برنامجا إصلاحيا بدأ فيه بالتوعية بضرورة تنقية الدين من الخرافات والبدع، ثم تعرض إلى ضرورة إصلاح الحكم من خلال محاربة الاستبداد وكل العوامل المؤدية إليه لهذا عمل على نشر الوعي والفكر الثوري، فكان صاحب فكر ثوري حر.

كان الكواكبي يريد قلب نظام الحكم المطلق في بلاد العرب، ولم يكن ذلك موقوفا على قلب هذا النظام في الدولة العثمانية أو قلب نظام الحكم في القسطنطينية عاصمة السلطان العثماني، فإن قلب الحكومة المستبدة في الدولة التركية قد يحتاج إلى وسيلة غير وسيلته المختارة لتحرير بلاد العرب واستقلالها بشؤونها، سواء تم هذا الاستقلال دفعة أو على درجات تترقى من الحكم الذاتي إلى تمام الاستقلال (العقاد). ففي كتابه استعرض الكواكبي تاريخ العثمانيين وما فعلوه في المسلمين شرقا وغربا، فجمع مخازيهم ومظالمهم. وبرهن بالوقائع والشواهد على قعودهم عن نصرة الإسلام وعدوانهم عليهم من الأوربيين المستعمرين وذلك ليدلل على أن الخلافة يجب أن لا تكون تحت لوائهم وخلافتهم (الدهان، 1984) فهم لا يصلحون للحكم، وبين أنهم لا يمكن أن يكونوا إخوانا للمسلمين وتميزت كتاباته بالجرأة فقد عبر صراحة وكتب ليزيل آخر صلة لهم بالعالم الإسلامي والممالك الإسلامية، فكان لكتاباته ومقالاته أثرا كبيرا في نفوس المسلمين في مصر خاصة، وفي أرجاء البلاد الإسلامية عامة، فكان بهذا رائدا للفكر الثوري.

إن الداء الذي سبب هذا الانحطاط هو الاستبداد السياسي، وقد تمحص عنده أن أصل الداء هو الاستبداد السياسي ودواؤه هو دفعه بالشورى الدستورية هكذا كان يقول الكواكبي، وقد عمل على كشف سبب التخلف، واعتبر السبب سياسيا متمثلا في الطغيان والاستبداد بالحكم مشيرا في ذلك إلى طغيان الحكم العثماني، وهذه القناعة جاءت الكواكبي نتيجة التصاقه بالأحداث السياسية من جانب، وبهموم الناس من جانب آخر، فعمله الاجتماعي لم يقتصر على الصحافة، فقد عمل بالإدارة والتجارة، وبذلك ازداد التصاقا بهموم الإدارة بقدر ما عانى منها وبتفكير جمهور العامة (عمارة، 1970) هكذا كان الكواكبي على وعي تام بمعاناة العامة من الطغيان الإداري، والاستبداد والفساد الذي حل بالمجتمع، لقد كان معايشا للأحداث والتحولات الخطيرة التي عرفتها الأمة والتي جعلتها متخلفة، هكذا يكون المثقف الفاعل الذي يمثل لحظة الوعي الصادقة بحالة مجتمعه، ويعمل بعد ذلك على إصلاح ما يمكن إصلاحه، فتظهر بذلك مجموعة من الأدوار يقوم بها ويؤديها خدمة لمجتمعه ولأمته.

وكان الكواكبي يرى أن الاستبداد السياسي ما هو إلا امتداد للاستبداد الديني لذلك دعا إلى الإصلاح الديني والتجديد كمرحلة أولى لإزالة الاستبداد .

فإذا كان الاستبداد السياسي امتدادا للاستبداد الديني، وكانت مظاهر هذا الأخير أداة يستعملها الأول، فالنتائج التي يخرج بها الكواكبي واضحة تمام الوضوح، وهي تنسجم كليا مع منطق تفكيره، إن الإصلاح أي إصلاح إنما يجب أن يكون إصلاحا دينيا في جوهره، يبدأ الإصلاح حين يبدأ الإصلاح الديني (كتورة، صفحة 42).

لقد رأى الكواكبي فسادا كبيرا في مجال الدين، فانتشرت الخرافات والبدع وتحول صوت رجل الدين، بوقا للسلطان والحكام، يشرع بما لم ينزل الله إرضاء للسلطان والولاة، صار الدين في خدمة السلطان، بدل أن يكون السلطان في خدمة الدين، هذا ما جعل الكواكبي يدخل في صراع معلن مع رجال الأزهر، فتحاملوا عليه واتهموه بفساد دينه، وراسلوا الخديوي والسلطان يحذرون من نشره !

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

إن الإصلاح الذي فهمه الكواكبي، كان قد فهمه غيره، حيث دعا إلى إصلاح الأحوال عن طريق إصلاح الأشخاص الذين قدر لهم تولي مسؤوليات سياسية في حقب تاريخية محددة، فقد اعتقد الأفغاني أيضا أن سبيل الإصلاح لا ينفصل عن إصلاح الأشخاص الذين أمسكوا زمام السلطة، ولكن الأفغاني لم يكن كالكواكبي، فقد آثر المشاركة في الحكم ومجالسة السلاطين حتى انتهى به الأمر سجينا في قصور الأستانة .

والكواكبي دعى إلى الثورة السلمية بعيدا عن العنف من أجل القضاء على الاستبداد وإذا كانت هذه نقطة قد تسجل ضده، فإن تجاوزها ممكن فعلا، فالكواكبي يرفض العنف من خلال رفضه الفتنة، ويقول بوجوب توضيح كل الأمور والخطوات التي يجب القيام بها، من إعداد للرأي العام، وإعداد لشخص المصلح، أو الشخص الثائر، الذي يتولى عملية الإصلاح، ومن توضيح للغايات والأهداف التي ترجى من عملية الإصلاح ككل، وبعد هذا تكون الثورة أمرا ممكنا . والحق أن الكواكبي لا يستبعدها كليا، إلا بقدر ما لا يرى شروط نجاحها متوفرة تمام التوفر (كتورة).

هكذا يبين الكواكبي دور المثقف،وضرورة بناء جيل من المثقفين يهيئون الرأي العام للقيام بثورة الوعي أولا، ولهذا كان يدعوا إلى تجنب السلوك العنيف في القضاء على الاستبداد في بداية الطريق، لأن البداية تكون بنشر الوعي أولا ثم الثورة، كي لا تكون الثورة حركة للغوغاء ونشر الفوضى. لقد قتلت الكواكبي أفكاره، فمات شهيدا للكلمة، قتل مسموما كما نقلته أغلب الروايات، هكذا يعيد التاريخ نسج حلقاته، سقراط نموذج المثقف اليوناني يقتل مسموما ويرغم على تجرع السم في سجنه، نفس المصير يلقاه المثقف الكبير عبد الرحمن الكواكبي، وإن اختلفت الملابسات إلا أن الصورة واحدة، الطغيان والاستبداد يسكت أصوات الحق للأبد، بالخديعة وبكل الوسائل، إن الأدوار التي لعبها الكواكبي هي التي قتلته ، فبعد أن سجن وحوكم بحلب وبيروت وبعد أن دخل في صراع مع الأكليروس الأزهري آنذاك، ها هو يفقد حياته في سبيل أمته.

استدعى الخديوي عباس الكواكبي قائلا: " يا كواكبي أريد أن أستشيرك في أمر يخصك، إنني استعد للسفر للأستانة لأجدد فروض الطاعة لمولانا السلطان، لماذا لا تحضر معي لاستجلاب رضا السلطان عنك؟ " . فأحس الكواكبي شيئا مريبا في الأمر لا يمكن أن تكون هذه فكرة الخديوي . إنها فكرة السلطان، وحذره صديقه محمد كرد أن يذهب فينتهي به الأمر كجمال الدين الأفغاني (عوض) أراد السلطان استدراجه إلى الأستانة ليحاكم ويقتل أو يسجن كجمال الدين الأفغاني، لقد رفض الكواكبي الذهاب، إذن لا بد من إسكاته للأبد هكذا بدأت الخطة تنسج للخلاص منه ومن قلمه وصوته المزعج.

جاءت النهاية، نهاية الكواكبي في مقهى يلدز بحديقة الأزبكية شرب القهوة فأحس بآلام، لماذا كانت القهوة فريدة المذاق هذه المرة، إن الفنجان كان طعمه غريبا، وهذه الآلام حلت به بعد فنجان القهوة بنصف ساعة فقط وبمجرد أنوصل الكواكبي إلى منزله بدأت الآلام تطارد جسم جزءا جزءا مات الكواكبي، ولكن هناك شيء غريب! كيف استطاع السلطان عبد الحميد، وهو في قصره بالأستانة، أن يعلم بوفاة الكواكبي، بمثل هذه السرعة، فأرسل مندوبه لمتابعة الأمر بالقاهرة (عمارة، 2008) .

وافته المنية في 7 ربيع الأول سنة 1320 هـ الموافق لـ 14 يونيو سنة 1902م ، وصادر رجال السلطان عبد الحميد أوراقه الخاصة، وأصول كتب كان قد كتبها ولم تنشر، ودفن بالقاهرة ، وعلى قبره كتب كلمة " الشهيد " وأبيات شعر لحافظ إبراهيم.

ثالثا: أدوار ومحنة علي عبد الرازق:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تعتبر أفكار الشيخ علي عبد الرازق امتدادا لأفكار رواد النهضة العربية في القرن التاسع عشر، ويعتبر رائد التيار التنويري العربي، وقد نشر أفكاره التنويرية في عدة كتب وضعها، وكان أشهرها على الإطلاق كتابة " الإسلام وأصول الحكم " الذي توضحت فيه أفكاره التنويرية بشكل جلي، وفيه خاض في مشكلة السلطة وبين حجم ارتباط الاستبداد بطبيعة السلطة السياسية القائمة ، والتي تدعي أن سلطة الخليفة مصدرها الله وليس البشر، وبالتالي لا مشروعية لمحاسبته، ورفض ربط الحياة السياسية والاجتماعية والمدنية بأحكام الفقهاء والذين تحولوا إلى معول في يد السلطان.

لقد لعب الشيخ علي عبد الرازق دورا كبيرا في محاربة الاستبداد باسم الدين والحكم الفاسد باسم الخلافة، وحارب كل أشكال الاستبداد ومبرراتها، ودعا إلى الدولة المدنية وضرورة قيامها ، لأن الدولة الدينية كانت مع الرسول وهي مقترنة بالرسالة، فلما مات النبي انتهت الرسالة ، فلا مجال لبقاء الدولة الدينية .

و في هذا يقول: " زعامة النبي كانت زعامة دينية جاءت عن طريق الرسالة لا غير، وقد انتهت الرسالة بموته فانتهت الزعامة. فإن كان لابد من زعامة بين أتباع النبي، فإنما تلك زعامة جديدة غير التي عرفناها للرسول من نوع لا ديني " (عبد الرزاق، 2012) فهو هنا يدعو إلى قيام دولة مدنية لا دينية، وبذلك فهو يعلن الحرب على الاستخدام الغير صحيح للدين في مجال السياسة واستغلاله للاستبداد بالحكم.

ويؤكد عبد الرازق على أن لقب الخليفة هو من أسباب الخطأ الذي تسرب إلى عامة المسلمين فخيل إليهم أن الخلافة مركز ديني، وهو أمر عززه السلاطين وروجوا له وجعلوا من الدين درعا وسلاحا لحماية عروشهم، وسلطانهم وفي هذا يقول عبد الرازق " فالدين بريء من تلك الخلافة التي يتعارف عليها المسلمون وبريء من كل ما هيؤوا حولها من رغبة ورهبة" (عوض، 2016).

ومعنى هذا الكلام أن الخلافة ليست مقاما دينيا، وإنما السلاطين هم من جعلوها كذلك بمساعدة من مشايخهم ، شيوخ السلاطين، الذين ألصقوا الخلافة بالمباحث الدينية، وجعلوها جزءا من عقائد التوحيد. فأضلوا بذلك المسلمين، وفسحوا المجال واسعا للسلاطين للاستبداد، فعطلوا بذلك الفكر السياسي، وعطلوا النهضة والخروج من التخلف ومسايرة الأمم المتقدمة.

وتبدأ محنة الشيخ علي عبد الرازق، مع إصداره لكتابه " الإسلام وأصول الحكم " الذي طرح فيه أفكارا جعلت منه هدفا لمشايخ الأزهر، وللسلطة الحاكمة باسم الخلافة والدين.

ينهال الشيخ عبد الرازق في كتابه بكل معاول الهدم التي تهدم فكرة الخلافة الإسلامية من جذورها، مسترجعا التاريخ الإسلامي كله الذي يرى فيه تاريخا متصلا من سفك الدماء والحروب وقمع الأبرياء وتكرار قتل الخلفاء أنفسهم ، هكذا نظر علي عبد الرازق للخلافة ودعا إلى قيام دولة مدنية، لأن الدولة الدينية انتهت مع نهاية الرسالة المحمدية، أما الخلافة فهي وسيلة للاستبداد بالحكم باسم الدين والدين بريء منها .

وكتاب الإسلام وأصول الحكم هو الكتاب الأكثر شجاعة في وقته، كيف لا وهو أتى من أزهري ينحدر من أسرة عريقة، وبدأ الشيخ كتابه بكلمة لماذا؟ وأجاب بأن هناك سؤالين ألحا على تفكيره وهما " هل الخلافة أصل من أصول الدين؟ وهل الإسلام أو غيره من الأديان يمكن أن يكون نظاما للحكم في العصر الحديث؟ (شكري، 1992) وفي إنكاره للخلافة يوضح أن الرسول لم يعين من بعده خليفة. وأن الذين تزعموا المسلمين من بعده ومن بينهم الخلفاء الراشدون كانت زعامتهم مدنية أو سياسية ، وأن أبي بكر هو الذي أسمى نفسه خليفة، وأن بيعته كانت ثمرة لجدال ثم اتفاق سياسيين ومن ثم كان حكمه مدنيا وكان اجتهاده دنيويا ولا علاقة له بفكرة الدولة الدينية .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويجد عبد الرازق تشابها بين الخلافة وبين نظم الحكم الأوربية في العصور ما قبل الحديثة، فالخلافة في بلاد الإسلام كانت سلطة يؤيدها شيخ الإسلام وتجمع ما بين شؤون الدنيا والدين ، وكان الخليفة إماما دينيا و سياسيا، وكذلك شأن المسيحية في بلاد الغرب، فلا يكاد يوجد حاكم سياسي لا يعتمد على تأييد الكنيسة ولا تقوم كنيسة لا تعتمد على الحكم السياسي ولقد ظلت البشرية ترزخ تحت سلطان هذا الحكم المطلق الذي يزاوج بين الدين والسياسة. إلى أن قامت ثورتها العنيفة التي اقتلعت هذا النظام، ولعله بهذا يعتقد أن ثورة أوربا لم تكن ثورة دينية بقدر ما هي ثورة سياسية استهدفت تفويض الحكم الديني والفصل بين الدين والسياسة (عبد الظاهر، 2016) وعلي عبد الرازق هنا يتوصل إلى حكم عام وهو أن الدين بعيد عن السياسة ، وكل الأمم مرت بفترات عصيبة وضف فيها الدين لخدمة السياسة فتحولت بذلك السلطة الدينية أو باسم الدين إلى استبداد وقهر للأمم، لهذا فالسياسة بعيدة عن الدين، والدولة يجب أن تقوم على أسس مدنية.

وفي القسم الثاني من كتابه يبحث علي عبد الرازق موضوع الحكومة في الدين الإسلامي وفيه يبين أن النبي- صلى الله عليه وسلم – لم يكن إلا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين، لا تشوبها نزعة ملك و لا دعوة لدولة، بكلمات أخرى إن محمدا نبي فقط. إنه لم يكن ملكا ولا حاكما ولا زعيما سياسيا، إن الفرق بين الاثنين خطير، لأن سلطة محمد – النبي – هي سلطة دينية، يستخدمها في سبيل الله والدين، أما سلطة محمد – الزعيم السياسي- فهي سلطة سياسية يستخدمها في سبيل الناس والدنيا حاشا لله. إن القرآن صريح في منعه النبي أن يكون حفيظا على الناس. ولا وكيلا، ولا جبارا، ولا مسيطرا. إنه حتى ليس من حقه أن يكره الناس على الإيمان بالإسلام ، لهذا كان النبي يكرر دائما للمؤمنين . " أنتم أعلم بشؤون دنياكم " (عوض).

وبهذا الشكل يبين علي عبد الرازق أن الزعامة التي تكون بعد النبي– صلى الله عليه وسلم - هي زعامة دنيوية سياسية وليست دينية لهذا فإن مفهوم الخلافة مفهوم أريد به السلطة والحكم باسم الدين ، وهو أبعد ما يكون عن ذلك، فالزعامة الجديدة بعد النبي – صلى الله عليه وسلم- ذات طابع مدني سياسي. وهكذا توصل علي عبد الرازق إلى القول بأنه لا خلافة في الإسلام، هناك إسلام وهناك سياسة، والسلطان فقط هو من أراد استخدام الدين لخدمته ، وهذه سياسة وهذه جريمة – حسبه-، إنها جريمة استخدام الدين لمصلحة السياسة . هكذا فضح عبد الرازق السلاطين والحكام باسم الدين، هنا تبدأ محنته، هنا يبدأ التضييق عليه، هنا يحاكم عبد الرازق باسم الأمة، باسم الدين. وقد كان في مصر الملك فؤاد الذي كان يسعى إلى الخلافة، خاصة بعد سقوط الخليفة العثماني وانتصار الثورة في تركيا على يد مصطفى كمال، وكان عبد الرازق يعلم بهذا الأمر فاستهل كتابه بسطرين لهما دلالتهما الكبيرة ، إنها رسالة للملك و أعوانه وأتباعه ولكل من باع نفسه وضميره من المشايخ ، عبارة يؤكد من خلالها أنه مسلم لكنه متنور، مسلم يرفض أكذوبة الخلافة التي جثمت على الأمة أمدا طويلا من الزمن، ساهمت في تخلفها وتراجعها بين الأمم.

إن أول من رد على كتاب علي عبد الرازق هم مشايخ السلطان حراسه الأمناء. حراس العرش باسم الدين، لقد تجند الكثير منهم للرد على الكتاب وصاحبه، ولتسفيه ما ورد فيه من أفكار، بل وصل الأمر بالبعض منهم إلى حد تكفير صاحبهم، خريج الأزهر علي عبد الرازق.

إن أول الكتب التي خرجت تهاجم علي عبد الرازق هو كتاب بعنوان " حقيقة الإسلام وأصول الحكم" تأليف الشيخ محمد نجيب المطيعي مفتي الديار المصرية سابقا ، وقد استغرب هذا الأخير إصدار علي عبد الرازق كتابه، إنه ينكر عليه أن يكون مسلما، فضلا عن أن يكون عالما وقاضيا للمسلمين، إنه يعتبر كتاب علي عبد الرازق كفر صريح يجب على قائله أن يتوب منه ليرجع إلى حظيرة الإسلام، تهمة خطيرة سوف تلتصق من الآن فصاعدا بعلي عبد الرازق (عوض، 2016). ما أسهل التكفير عند مشايخ السلطان، ما أسهل إخراج الناس من الدين والملة عندهم، هكذا تعمل منظومة الخلافة التي انتقدها على عبد الرازق، هكذا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تواجه الأفكار الحرة ، لا تقارع الفكرة بالفكرة، بل بالسيف والترهيب، إن علي عبد الرازق أخرج كتابه بكل هدوء ودقة وقدمه بطريقة منطقية مبنية على الحجج والبراهين والأدلة، ولكن الكتب التي وضعت للرد عليه، لم يكن فيها الهدوء ولا الدقة ولا المنطق، إنها تهاجمه وتهاجم أفكاره وتجرح في شخصه وتخرجه من دائرة الإسلام .

إن الرجل يقف وحده ضد الملك، ضد حاشية الملك، ضد السياسة، ضد المتاجرين بالدين لمصلحة السياسة، إنه يجتهد برأيه في الوقت الذي لا يريد فيه السلطان أي رأي، إن علي عبد الرازق يجيء الآن ليساهم – مع قليلين قبله- في فتح باب الاجتهاد في الدين، في إبداء الرأي، في المطالبة بحرية الرأي، إنه الآن يواجه كل هذا الرصيد المتعفن الذي ترسب عند المتاجرين بالإسلام طوال عشرة قرون سابقة، إنه يواجه الطابور وحده، يواجه السلطان وحده، يجرد الخلافة من عباءتها الواسعة التي ارتدتها طوال فترة الانحلال والتدهور. الدين لله والسلطان للدنيا، الدين نقدسه والسياسة نراجعها، الدين نؤمن به والسلطان نحاسبه (عوض).

عندما أصدر علي عبد الرازق كتابه لم يكن يعلم أن كتابه هذا سيحدث أكبر أزمة وزارية يشهدها التاريخ المصري الحديث، هناك أطراف كثيرة يهمها أمر هذا الكتاب، هناك الملك الذي يسعى للحصول على لقب الخليفة، والإنجليز الذين يساعدونه من وراء الستار، وهناك المتاجرون بالدين، الذين يسهلون أمام الملك استخدام الدين في أغراضه السياسية، وهناك السياسيون الذين يحصلون من الملك على عمولة مقابل كل زيادة في سلطته (عوض، 2016).

استدعى الملك فؤاد رئيس الوزراء بالنيابة وأمره أن يجعل علماء الأزهر يفكرون علي عبد الرازق كي لا يظهر هو في الصورة، وبالفعل هوجم علي عبد الرزاق في الصحف والمجلات وبالكتب، وأعلن الأزهر كفره.

لقد أثار الكتاب ضجة في الوزارة، إن الاتصالات تبدأ، المشاورات تستمر، مشاورات مع المندوب السامي البريطاني، مع الملك، مع حزب الإتحاد مع الأزهر، اجتماعات ولجان مغلقة، الإلحاد هو التهمة المناسبة... أول مظاهره ضد المؤلف يوم 15 يونيو 1925م بالجامع الأزهر، عرائض تكتب، الموت لأعداء الدين، علي عبد الرازق عدو الدين (عوض) هكذا يهيأ الرأي العام للخطوة القادمة، لابد من تشويه صورة علي عبد الرازق لدى العامة،وإخراجه للعامة على أنه كافر وخطر على الأمة وأن عقابه وجب، هنا يصدر القرار بمحاكمة علي عبد الرازق، أمام هيئة كبار العلماء والتهمة هي الإلحاد والكفر.

تبدأ جلسة محاكمة علي عبد الرازق يوم 12 أغسطس 1925م أمام علماء الأزهر وتدوم المحاكمة لساعات، وينطق الحكم : " حكمنا نحن شيخ الأزهر بإجماع أربعة وعشرين عالما معنا من هيئة كبار العلماء بإخراج الشيخ علي عبد الرازق أحد علماء الجامع الأزهر، والقاضي الشرعي بمحكمة المنصورة الابتدائية الشرعية ومؤلف كتاب الإسلام وأصول الحكم من زمرة العلماء (عوض). هكذا أخرج علي عبد الرازق من زمرة العلماء، وسحبت منه شهاداته، إنها إعلان عن استلاب حرية الفكر، إعلان عن تشريده وتجويعه، هكذا يصبح علي عبد الرازق بدون شهادات، ما يعني عدم أهليته لشغل أية وظيفة، هنا تبدأ أزمة وزارية، وزارة العدل لا تأخذ بحكم الأزهر وهيئة كبار العلماء. لأن علي عبد الرازق موظف تابع لها ومن حقها هي فقط محاكمته فهيئة كبار العلماء هيئة دينية لا يحق لها أن تعاقب الشيخ علي عبد الرازق.

اجتمع مجلس الوزراء واختار وزير الحقانية أن يكسب الوقت فلا يغضب الملك فؤاد، ولا أن يخرج عن إطاره الحزبي – حزب الأحرار الدستوريين- الذي كان ينادي بإقامة دستور. هكذا أوكل وزير الحقانية الأمر للجنة قانونية هذا الأمر جعل وزير الحقانية يدخل في صراع مع رئيس الوزراء بالنيابة يحي باشا إبراهيم.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فأصدر الملك قرارا بإقالة وزير الحقانية، هكذا بدأت الأزمة واعتقال وزراء من الحكومة وعادوا للمعارضة من جديد فالملك انتهك الدستور (عوض).

ولكن هناك رجل بقي معلقا، إنه علي عبد الرازق، إن الكاتب الشاب دافع عن رأيه بشجاعة. وتلقى عقوبته في صمت، وانزوى إلى النسيان في مرارة، نعم النسيان فالرجل الذي تسبب كتابه في أضخم أزمة سياسية عاد إلى الحياة في هدوء بلا وظيفة ولا مرتب، ولا تقدير، ولا حتى رد اعتبار، إن الصداقة معه أصبحت تهمة، والتضامن معه أصبح جريمة، والكتابة عنه أصبحت خطيئة ، إنه لو لم يكن ينتمي لأسرة غنية لمات جوعا، وفقرا وحرمانا، ولكن الحرمان من الرأي هو أحيانا أسوأ ألف مرة من الحرمان من الطعام. فأن يكون الإنسان صاحب رأي ثم لا يملك الحق في إعلان رأيه هو حكم دائم عليه بالحياة مع القطيع (عوض، 2016). لقد كان لكتاب علي عبد الرازق وقعه على الساحة الفكرية والسياسية بمصر وكان له أثره البالغ، فبعد أزمة الوزارة قامت الثورة وسقط الملك وطرد الإنجليز، كتاب فقط له هذا الأثر البالغ، نعم إنها بصمة المثقف الفعال، الذي يتخذ من فكره وكتاباته سلاحا لا يضاهيه سلاح آخر، نعم كانت محنة علي عبد الرازق – نموذج المثقف التنويري- محنة كبيرة، لكنه بفضلها ساهم في تحرير مصر والأمة ككل من خرافة الخلافة وما أحيطت به من تدليس واستغلال لها ، نعم علي عبد الرازق فضح تجار الدين والسياسة على السواء، وتوفي في سنة 1966م ليخلد اسمه ضمن قائمة طويلة من مثقفي الأمة العربية والإسلامية الذين أدوا أدوارا كبيرة في سبيل نهضة الأمة وخروجها من التخلف.

خاتمة:

هكذا لاقى المثقفون العرب في عصر النهضة العربية محنا عصيبة نتيجة الأدوار التي أدوها في خضم معركتهم من أجل القيم السامية التي يؤمنون بها، من أجل الحقيقة وبناء المجتمع العادل، وخلدوا أسماءهم في قوائم شرفاء الأمة وبناتها، والمثقف على مر العصور يعتبر المحرك والمنقذ للمجتمع في فتراته العصيبة، فهو الذي يقدم الحلول ويبني التغيير ويعلي كلمة الحق، ويرسي معالم المجتمع العادل، وكذلك كان زعماء الإصلاح في عصر النهضة العربية، فكانت أفكارهم بمثابة الوقود الذي حرك الشعوب العربية لتنهض من سباتها وتتخلص من كل أشكال الاستعمار والوصاية الأجنبية وتنال استقلالها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الإحالات والمراجع:

1. أحمد أمين ، زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د ط 2009) . ص 60
2. جرجي زيدان ، تراجم مشاهير الشرق في القرن 19 ،(القاهرة :مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ،ج1، د ط 2012). ص 375
3. جمال الدين الأفغاني ، الله والعالم والإنسان ، تحقيق محمد عمارة ، (بيروت: المؤسسة العربية للطباعة والنشر ، د ط 1989) ص 316.
4. جورج كتورة. طبائع الكواكبي في طبائع الاستبداد ، (بيروت المؤسسة الجامعية للدراسات والتوزيع والنشر، ط1،1987) . ص 59
5. حسام أحمد عبد الظاهر ، مختارات من آثار علي عبد الرازق ، (القاهرة :المجلس الأعلى للثقافة ، ط1، 2016) ص.11
6. زكي الميلاد، حركة الإصلاح في العصر الحديث ،عبد الرحمن الكواكبي ، (السعودية : مجلة الكلمة ، العدد37، 2002) س.ص 9 .
7. سامي الدهان، عبد الرحمن الكواكبي ،(القاهرة : دار المعارف للطباعة والنشر ، د.ط، 1984) .ص 90.
8. علي زكي عوض ، حركة الإصلاح في العصر الحديث ، عبد الرحمن الكواكبي نموذجا ، (عمان : دار الرازي ، ط1، 2002) . ص 82
9. علي عبد الرازق ، الإسلام وأصول الحكم ، بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام ، تقديم :عمار علي حسن (لبنان/مصر:دار الكتاب اللبناني / دار الكتاب المصري ، ط1، 2012) . ص 82.
10. غالي شكري ، النهضة والسقوط في الفكر المصري الحديث ،(القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط1، 1992) .ص 39
11. كامل الشناوي ، زعماء وفنانون وأدباء ، (القاهرة : دار المعارف ، ط2 ، 1987) .39
12. محمد عمارة ، الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي ، (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، د ط ، 1970) .ص 238.
13. محمد عمارة ، شخصيات لها تاريخ ،(القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر ، ط1، 2008) .30
14. محمد عمارة ،جمال الدين الأفغاني ، حقائق التاريخ وأكاذيب لويس عوض ،(القاهرة : دار السلام ، ط1، 2009).153
15. محمود أبو رية ، جمال الدين الأفغاني ، (القاهرة : دار المعارف ،ط4، 2006) .53
16. محمود عباس العقاد، الرحالة ك ، (القاهرة : دار النشر للجامعات المصرية ، دط ، 1959) .48-49
17. محمود عوض ، أفكار ضد الرصاص ، (القاهرة : دار المعارف ، ط 6 ، 2016) ص ص .141-142

www.manaraa.com